الضريح

الأمير فتحي عزام

obeikan.com

obeikan.com

ينسدل ستار الشمس؛ كي يخفي وضوح النهار؛ ليأتي الليل بعتمته؛ لا تدري أ ليل هو أم ظلمة القلب التي أنارت للجهل طريقًا بين العقول؟!

ضريحٌ صغيرٌ في قرية صغيرة، أنبتت فتنةً نائمة منذ عهود، على الرغم من حداثة الضريح.

تحت ظل شجرة التوت أُنشِئ؛ بطلاء أخضر من الجير تزيّن، بنور أخضر في الداخل تلون.

"عنايات" عجوز شمطاء تخطاها العمر، وترك على وجهها آثار الهِرَم، فهي ابنة أخ الولي "الشيخ نعمان" ...

تحرس الضريح؛ تحكي للمريدين عن كراماته، وكيف أنه عاد من الموت بعدما دفن في القبر لمدة أربعين يومًا!!

شاهد بالفعل الكثير من أهل القرية "الشيخ نعمان" وهو خارج من قبره بعدما دفن، لكن لم يبقَ منهم أحد على قيد الحياة غير" عنايات " فقد مر ستون عامًا أو يزيد.

لكن ما هي قصة الضريح؟ كان هذا سؤالًا قد جال في خاطر الشيخ "سالم" أستاذ الشريعة في المعهد الأزهري بعد تلك الفتنة.

حاول الشيخ أن يثني الناس كثيرًا عن التقرب للضريح، عن الطواف من حوله عن الذبح والنزور والتعبد به تقربا لله، بل زاد من ذلك أفعال الدجل والسحر من قبل السيدة عنايات، التي ذاع صيتها في جلب الحبيب، وتحديد المولود إن كان ذكرا أم أنثي، حاول الشيخ أن يثني الناس في خطبة الجمعة، وأثناء إلقاء الدروس للطلبة؛ فهو على يقين بأن مَنْ في القبر لا حول له ولا قوة، وأن الأمر كله بيد خالق كل شيءٍ، وان الله قريب إلى العبد كحبل الوريد.

لكن الأمر كان أكبر منه، فهناك مَنْ شاهد الشيخ عائدًا من الموت، واعتبروه معجزة، وكأنه رسولٌ بُعِثَ لهم؛ كي ينير لهم طريق الجهل، واختلاط الأمر عليهم من كثرة الشيوخ والفتاوي، والجهل المشتعل بعقولهم؛ مما جعلهم لا يميزون بين الحق والباطل، بل يسيرون وراء كل كلمة يظنون أنها تُطفئ نار جهلهم المشتعل، وإن كانت هذه الكلمات تزيد الجهل أضعافا.

فتنة كبرى حدثت صباح اليوم في القرية بسبب الضريح؛ مجموعة من الشباب مطلقي اللحى مقصري الثياب البيضاء حاولوا هدم الضريح.

استغلوا عدم تواجد السيدة "عنايات" وحاولوا هدمه؛ اعتقادًا منهم بأنه بدعه ولابد من هدمه، ونسوا بأن للميت حق، وأن للقبر حرمة، ولا يضر من بالقبر بما يفعل فوقه إن كان خيرًا أم شرًا لكن نظرًا لاستنفار أهل القرية من هؤلاء الشباب، ومن أفعالهم الغريبة ومن تكفير كل من يخالفهم في الرأي، بل وصل الأمر بتحريم الصلاة في المساجد التي يكون إمامها شخص يحاربهم أو ينكر عليهم فكرهم، أو يخالفهم في الرأي؛ فلقد بنو مساجدهم، دورهم، زواياهم، معيشتهم، بل بنو إماراتهم.

تتبع أهل القرية الشباب، وعندما بدأوا الهدم وقفوا لهم بالمرصاد....

حدثت المواجهة أُصيب مَنْ أصيب؛ سالت بعض الدماء...

دماء الأقارب والأهل....

دماء المسلمين....

انزعج "الشيخ سالم" مما حدث؛ هو يعلم تمام العلم ما جزاء من يرفع السلاح في وجه أخيه المسلم، ماذا يفعل؟

هل يسير مع من ساروا، ويصدر حكمًا بأن هؤلاء الشباب إرهابيون خارجون عن الدين ويحل دمهم؛ أم يعلن أن الضريح ما هو إلا قبر، وأن المريدين والطائفين به يسيرون وراء بدعة ضالة؛ تؤدي بهم إلى قاع جهنم؟؟!!

جلس "الشيخ سالم" في بيته ثلاثة أيام، لا يخرج منه إلا للصلاة فقط، ولا يُكلم أحدًا بل يكتفي بالرد على السلام، وإن قلَّ من يقرئه السلام لسلبية موقفه.

قرأ القرآن... وختمه

انزعجت منه مكتبته الكبيرة من كثرة البحث في كتبها!!

بعد مرور الثلاثة أيام أيقن "الشيخ سالم" أن الفتنة تُرد بالفكر والعقل بجانب القوة.

لا يوجد أي دليل في أي كتاب على أن أحدًا قادرٌ على أن يُبعثُ من الموت.....

يعلم أن المدد والعون لا يأتي إلا من الله فقط.

ويعلم أيضًا أن ما من مسلم يرفع السلاح في وجه أخيه المسلم إلا ولعنته الملائكة...

لكن كيف سيرد الفتنة؟؟

كيف سيواجه أهل القرية؟!

لم يعد أمامه غير "السيدة عنايات"...

لا يوجد أحد غيرها شاهد "الشيخ نعمان" خارجا من قبره؛ لكن كيف وهي من تجتذب الناس إلى الضريح وتدافع عنه؟

حاول الاقتراب من الضريح؛ ليدرس الأمر عن قرب، تتبعه بعض أهل القرية يساورهم الشك منه؛ لعدم اقترابه من الضريح منذ سنوات، وموقفه من الأضرحة والتشبث بها.

اقترب من الضريح بل أنه جلس بداخله يسترسل بالحديث مع "السيدة عنايات"؛ كي يعي ما ورائها...

جاء يتحدث كالمريدين طالبًا البركة منها؛ لكن هيهات فالعجوز تعلم من هو، وتعلم معتقده جيدًا، بل أنها اختصرت عليه الأمر بأن طلبت ممن

تتبعوه أن يحضروا بقرب مجلسهم؛ كي يسمع عامة الناس حديث "الشيخ سالم"!!

تصبب الشيخ عرقًا وتلعثم الحديث في فمه، ولم يجد من ينجده غير أذان العصر، فطلب الانصراف للصلاة، ومن ثم يعود لكنه لم يعد!!

في صباح اليوم التالي حضر مأمور المركز إلى القرية؛ يتابع القضية وعند الظهيرة اجتمع ب "الشيخ سالم" نظرًا لصلة القرابة التي تجمعهما، حاول "الشيخ سالم" أن يخاطب المأمور بالعقل، لكنه وجد من المأمور الأمر والزجر طالبًا منه أن يتصدى لفكر أصحاب اللحى فقط.

بعد صلاة العصر توارى "الشيخ سالم" محاولًا الاقتراب من الضريح؛ حتى لا يلمحه أحد من المارة ويتتبعونه مرة أخرى!

عندما اقتربت الشمس من المغيب لاحظ "الشيخ سالم" العجوز تغلق باب الضريح، وتلملم أشياءها وبجوارها رجل يحمل لها كيسًا كبيرًا على ظهره، ومن ثم يضعه على حمار ثم انطلقا يتتبعهما "الشيخ سالم" من بعيد!!

عندما ابتعدا عن القرية استقرا في مزرعة للقصب، على أولها كوخ صغير من البوص، طلبت العجوز من الرجل أن يُنزل الكيس ويتركها ويعود!

بعد لحظات غاب الرجل عن الأنظار، ودخلت العجوز الكوخ بمفردها و"الشيخ سالم" يتوارى منها بين أعواد القصب، يختلس النظر لكنه لم يستطع أن يري ما تفعله بالداخل! بضع دقائق وخرجت امرأة من الكوخ، يبدو عليها تقدم العمر ترتدي ثيابًا فاخرة، ونظارة سوداء، وتغطي رأسها بقبعة جميلة وبيدها حقيبة سفر.

لم يكترث الشيخ لها أعتقد أنها كانت متواجدة في الكوخ من قبل. ظل واقفًا قرابة الساعة ينتظر خروج العجوز، بعدما غادرت السيدة الجميلة، وسارت حتى وصلت للطريق، ومن ثم ركبت سيارة أجرة وغادرت...

غاب آخر بريق للشمس فأظلم المكان تمامًا قلق الشيخ...

حاول الاقتراب لكنه خاف أن تراه العجوز وتعتقد أنه يراقبها..

بهدوء اقترب ودخل الكوخ فأصيب بالذعر! لا وجود للعجوز والكيس خاوٍ، لا أحد.

مكث الشيخ طيلة الليل بعيدًا عن الكوخ ينتظر طلوع الصباح ليتفاجأ بالسيدة الجميلة تأتي مرة أخرى وتحمل حقيبتها، وتدخل الكوخ مرة أخرى لتخرج بعد ذلك منها عجوز شمطاء بملابس مهلهلة، وعلى ظهرها كان الكيس المصنوع من القماش فارغًا!!!

على الفور عقل الأمر جيدًا؛ وعلى الفور اجتمع مع المأمور في مكتبه وقص عليه الأمر.

حاول المأمور أن يتملص من القصة، وأن يضع نصب عينيه فقط محاصرة ذوي اللحى، وإحضارهم!...

لكن الشيخ أقنعه بأن يهتم بالأمر؛ فكثيرًا ما ساعد الشيخ المأمور في قضايا الثأر والخلافات العائلية.

انصاع المأمور لكلام الشيخ فلربما يجد شيئًا جديدًا مثيرًا.

تتبع المأمور والشيخ السيدة الجميلة ليلًا، حتى وصلا إلى منزلها الكبير، المحاط بسور من الأشجار يخفي ما بداخله من جنة خضراء

وحمام للسباحة. طلبا الدخول إلى البيت، المأمور بملابسه الرسمية، والشيخ بلباس الأزهر ومن خلفهم العساكر!! انصاع الخادم ثم تركهم في بهو المنزل ليستدعي السيدة.

حضرت السيدة وكان كل من في البيت منزعجين...

رجال ونساء وشباب وأطفال.. أسرة كاملة تعدت العشرين فردًا، حضروا جميعًا ليروا ماذا اقترفت جدتهم! ما أن رأت السيدة الجميلة الشيخ والمأمور؛ ارتعدت أوصالها، نظرت لمن خلفها يخاطبها عقلها هل علما الأمر؟ لماذا الشيخ والمأمور متواجدان؟؟

لملمت شتات نفسها، وبصوت جهوري خاطبت المأمور: من أنت ولماذا جئت؟!

تقدم إليها المأمور وبصوت هامس قال: أحقا لا تعلمين من نحن؟

- ألا تعرفين الشيخ؟ ولماذا جئنا؟

أعتقد أنه لابد لنا أن نتحدث سويًا بمفردنا؛ كي لا يعلم الجمع من هي السيدة "عنايات"!! طلبت السيدة "عنايات" أن ينصرف الجميع، ودلفت معهما إلى حجرة مجاورة، وأغلقت الباب...

وقف الشيخ منفعلًا محاولًا مخاطبتها، لكن السيدة عنايات أشارت له بيدها كي يصمت لتقول:

- سأخبركم بالأمر شريطة ألا يعلم أهل بيتي شيئًا... نعم، أنا العجوز... نعم، أنا "عنايات" أنا ابنة أخ "الشيخ نعمان"، حبيبته وقرة عينه، التي كان يعتبرها ابنته، بعدما منع الله عنه نعمة الإنجاب...

اقترب الشيخ منها سائلًا:

- كيف خرج "الشيخ نعمان" من قبره حيًا بعدما دفن أربعين يومًا؟؟؟

قاطعه المأمور مستفسرًا:

- بل هل فعلًا دفن حيًا أم قتل؟؟ لقد قرأت ملف قضيته ولم أعِ منه شيئًا!

ضحكت العجوز قائلة:

- كل يغني على ليلاه؛ كل له مبتغً يتمناه ولمَ لا؟ فلقد حققت مبتغاي!!

نعم، قتله أبي وعمي الأصغر؛ قتلاه ولم يقتلاه!!

لا تنظر إلى هكذا أيها المأمور ليس لغزًا بل حقيقة!!

اجتمع أبي مع أخيه الأصغر وعزما على قتل أخيهم الأكبر!

لم ينتظرا موته ليرثاه فليس له ولد أو بنت!!

استرقت السمع وهما يتفقان على وضع السم في شرابه؛ أبدلت السم بدواء والدتي المنوم، التي كانت تتعاطاه بسبب مرضها النفسي، الذي سببته معاملة أبي لها.

حملاه جثة لكنه كان جسدًا نائمًا، وضعاه في التابوت دون أن يغسلاه!!

كفناه ودفناه!!

دفناه في قبره الذي يرتفع عن الأرض قرابة المترين، ذي باب حديدي في واجهة القبر، باب صغير يكفي لدخول رجل واحد مطأطأً رأسه.

هالا عليه التراب ثم تركاه...

أغلقا باب القبر بل أقاما عليه بالطين حائطًا!

جن جنوني؛ عمي الأكبر حي بداخل القبر ماذا أفعل؟

ماذا أصنع مع من كان دائم العطف عليّ؟

كان أحن عليَّ ممن اعتقدت أنه خُلق كي يحنو عليَّ!!

هل أهدم الحائط؟

لكن كيف لي بفتح الباب؟

بعدما انصرف المشيعون حفرت حفرة أسفل القبر، وحاولت نزع حجر صغير من الحائط أسفل الحفرة، استطعت أن أنزع حجرًا صغيرًا سمح لي أن أرى يده وهي تمتد خارجةً تحاول الصراخ فقدمت له الطعام والماء.

كل ليلة أذهب أعطيه الطعام والماء، ثم أضع الحجر مرة أخرى ثم أخفي الحفرة من جديد!!

بعد مرور الأربعين يومًا، وعندما تُوفيَ أحد أقاربنا، جاء الرجال لفتح القبر؛ لدفن الميت ففوجئوا به بالداخل مرتعدًا خائفًا وخرج منزعجًا منهم.

هاجم الناس وهو يصرخ كالمجنون؛ ففُزِع الناس؛ وفرَّوا من أمامه، وأخذت قدماه تخطو بعيدًا في كل مكان كمن مسه جان، حتى أغمي

عليه؛ ونقلوه إلى البيت لكنه سرعان ما مات بعد خروجه من القبر بساعتين!!!

- صدق كلامي!!! لم يكن ميتا حين دُفن!!!

ضحكت العجوز وقالت:

- وهل يُبعثُ أحدٌ من الموت؟؟ أيها الشيخ من أين حصلت على شهاداتك؟!

وقف المأمور مذهولًا ينظر إلى جنبات المكان قائلًا:

- يبدو أنكِ تستغلين جهل الناس وبنيتِ ذلك القصر!!

ردت بثقة:

- نعم أيها المأمور... الذنب ليس ذنبي؛ الذنب هو جهل الناس!

- سيدتي الذنب ذنب من يعتقد أن الجهل بضاعة، يستطيع أن يبيعها للناس لكسب المال، لن أتخذ معكِ إجراءً الآن، لكنني سأنتظرك بمكتبي غدًا؛ كي لا يعلم الجمع الملتف خارجًا سر ثرائهم الفاحش!!...

"شيخ سالم" أعتقد أننا فهمنا أمرًا، وينتظرني أمر آخر لابد أن أقوم به!

- أعلم سيدي المأمور... ذوي اللحى!!...

لا ألومك على شيء، وأنا أيضًا ينتظرني جهل كنت سببًا في إكثاره، ربما كانت سلبيتي سببًا في إنبات جهل دائم في بلدتنا...

تمت

obeikan.com